

جهود أحمد بابا التنبكي في خدمة المذهب المالكي وأثره على بلاد السودان

والمغرب الإسلامي

أ/ الطاهر خالد



جامعة الجزائر 02

الملخص:

نعالج في هذه المقال موضوعا هاما عن شخصية تعد من أهم العلماء الفاعلين في المذهب المالكي، والذين غرسوا جذوره ببلاد السودان وتركوا بصمات واضحة فيه بهذه المنطقة وبالمغرب الإسلامي، ألا وهي شخصية أبو العباس أحمد بابا التنبكي. التي لم يحظ بدراسة كافية مقارنة بما خلفه من كتب وتأليف في مختلف العلوم. حيث ترك مصنفات وروائع يحق لها أن تأخذ نصيبا من الدراسة والتحليل. وكان لهذه المؤلفات أثر بشكل كبير على بلاد السودان خاصة والمغرب الإسلامي عامة، وتتوزع هذه المؤلفات على عدة خزانات ومكتبات في هذين القطرين.

الكلمات المفتاحية: أحمد بابا التنبكي، بلاد السودان، المذهب المالكي، المغرب الإسلامي.

Abstract:

We address in this paper the important subject of a personality is one of the most important scientists active in the Maliki school, who planted roots in the country of Sudan and left clear fingerprints in this region and the Islamic Maghreb, the character of Abu Abbas Ahmed Baba Altnbkti. Who did not have enough study compared to his books and writings in various sciences. Where he left works and masterpieces entitled to take part of the study and analysis. These works have had a significant impact on the country of Sudan, especially the Islamic Maghreb in general, and these books are distributed on several reservoirs and libraries in these two countries.

key words: Ahmed Baba, Country of Sudan, The Maliki Doctrine, Islamic Maghreb.

انتشر الإسلام ببلاد السودان منذ القرن الأول الهجري /7م بفضل الدعاة والتجار والمهجرات المغاربية إليها، وساهم هؤلاء في نشر العقيدة الإسلامية والمذهب المالكي ببلاد السودان وذلك من خلال الدور الكبير الذي بذله فقهاؤها في خدمته وإرساء قواعده، واتضح هذا الأثر في الممالك التي قامت بالمنطقة، ومن أهمها مملكة غانة الوثنية ومملكة الكانم والبورنو ومملكة مالي الإسلامية، وبرز هذا الأثر أكثر في مملكة سنغي التي قامت في القرن العاشر الهجري/16م في عهد الأسكيين، حيث ظهرت بها عدت حواضر مثل جنى وغاو وتنبكت إذ هذه الأخيرة كانت بمثابة عاصمة ثقافية لها، لا تختلف في مظاهرها الثقافية اختلافا كبيرا عن باقي الحواضر الإسلامية مثل الأزهر والقيروان وبجاية وتلمسان وتوات وفاس، وذلك من خلال التأليف والنسخ وتجارة الكتب ووفود العلماء إليها من مختلف أصقاع العالم الإسلامي . بالإضافة إلى اهتمام هذه الحاضرة بالعلم وتشجيعها للعلماء واحترامهم وتسهيل تنقلهم ببلاد السودان، مما أدى إلى نبوغ وظهور عدة علماء في الفقه والتاريخ وغيرها من العلوم من بينها أسرة أقيت التي خرج منها العالم والفقير والمؤرخ في المذهب المالكي أحمد بابا خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجري/16 و17م باعتبار أن له تصانيف في المذهب المالكي التي تعتبر صلة وصل بين علماء المغرب الإسلامي وعلماء بلاد السودان فقد نالت حاضرتي تنبكت ومراكش من ثمرات علمه الغزير ومن هذا المنطلق يمكن ان نطرح التساؤل التالي: كيف أسهم المذهب المالكي في استقرار الإسلام ببلاد السودان؟ وما مدى تأثير أحمد بابا التنبكتي به من خلال مؤلفاته؟ وبناء على ما تقدم فإننا ارتأينا أن نعالج هذا المقال مركزين فيه على محاور أساسية، إذ سنتطرق في هذه الورقة العلمية إلى نشأة احمد بابا التنبكتي، وثناء مؤرخي وعلماء بلاد السودان والمغرب الإسلامي عليه، ثم تحدثنا عن أثر المذهب المالكي في بلاد السودان، كما عرجنا على إسهامات احمد بابا في خدمة المذهب المالكي من خلال مؤلفاته في مجال التراجم والإعلام وكذلك في مجال النوازل.

أولا/ نشأة أحمد بابا التنبكتي

عرف أحمد بابا التنبكتي نفسه في كتابه "كفاية المحتاج" على أنه أحمد بن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت الصنهاجي الماسني⁽¹⁾، ويرجع أصله إلى قبيلة مسوفة الصنهاجية⁽²⁾. أما نسبه من ناحية والده فيعود إلى أسرة أقيت⁽³⁾ التي اشتهرت بالعلم. ومن ناحية والدته ينتسب إلى أسرة أندغ محمد وهي أسرة اشتهرت أيضا بالعلم والصلاح⁽⁴⁾. وكانت ولادته في قرية أروان⁽⁵⁾ في 21 ذو الحجة 963هـ الموافق ل 26 أكتوبر 1556م، وقد أشار إلى تاريخ ولادته كل من الأفراني (ت 1156هـ-1744م) في "نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي" والحي في "خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر"، لكن القادري (ت 1187هـ-1773م) يذكر في كتابه "نثر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني" و"الإكليل والتاج في تذييل كفاية المحتاج" أن ولادته كانت سابقة لهذا التاريخ في عام (960هـ-1553م)⁽⁶⁾، وقد حسم أحمد بابا هذا الخلاف بنفسه في "كفاية المحتاج" فيقول: "مولدي كما وجدته بخط والدي ليلة الأحد والعشرين من ذي الحجة عام ثلاث وستين وتسعمائة"⁽⁷⁾. وقد نشأ في أحضان أسرة من بني أقيت المعروفين بانتسابهم إلى العلم، والتي اشتهرت بخدمة المذهب المالكي الذي أخلصت له كل الإخلاص وهذا ما ظهر من خلال إنتاجهم الفكري

(1) أحمد بابا التنبكتي: كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، ج2، تحقيق: محمد مطيع، المملكة المغربية: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2000، ص513.

(2) القادري محمد ابن الطيب: الإكليل والتاج في تذييل كفاية المحتاج، تحقيق: ماريه دادي، الرباط، 2009، ص166.

(3) أقيت: بضم الهمزة التي تعني بالأمازيغية "ابن" وذلك حسب النطق المحلي. وهي أسرة سودانية عاملة تنتمي إلى مسوفة كدالة من فروع قبيلة صنهاجة. وأول من حمل هذه الكنية منهم الجد الثالث لأحمد بابا محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحي المسوفي الصنهاجي. ينظر: الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر: معلمة المغرب، ج2، المغرب الأقصى: مطابع سلا، 1989، ص584.

(4) شوقي عطا الله الجمل: "أحمد بابا التنبكتي السوداني في ضوء بعض مخطوطاته بدار الوثائق بالرباط"، مجلة المناهل، (المغرب)، ع/6، السنة الثالثة، يوليو 1976، ص147.

(5) أروان هي منطقة تقع شمال مدينة تنبكت والواقعة هي الأخرى في أقصى شمال مالي حاليا. ينظر: أيوب الاشبيلي: موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب المسلمين، ط1، ج1، بيروت: منظمة العربية والثقافة والعلوم، 2004، ص265.

(6) القادري محمد ابن الطيب: نثر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، ط1، تحقيق: محمد حجي وأحمد توفيق، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1996، ص1279.

(7) أحمد بابا التنبكتي: المصدر السابق، ص516.

في تنبكت (1). وكانت لها الوجاهة الكبيرة والرياسة الشهيرة في بلاد السودان عامة وفي حاضرة تنبكت خاصة، ويعتبر هذا البيت بيت علم وصلاح، وقد تعددت فيهم العلماء والأئمة والقضاة، وكان لهم دور في نشر الإسلام والثقافة العربية في المنطقة. كما توارثت رياسة العلم مدة طويلة حيث يقول الناصري في ذلك: "...وتوارثوا رياسة العلم مدة طويلة تقرب من مائتي سنة..." (2). إلا أن القادري ذكر أنهم توارثوا العلم أزيد من خمسمائة سنة، ومنهم كان الأسكيين يختارون القضاة في تنبكت وفي جني وفي غاو (3)

فقد كان جده أحمد بن عمر بن محمد أقيت (4)، من أكبر العلماء في زمانه، والذي ترك مكتبة ضخمة ضمت حوالي سبعمائة مصنف (5). أما والده أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت (6) كان عالما وفقهيا كون مكتبة من المصنفات النفيسة والنادرة. وبهذا ساهمت البيئة العائلية

(1) يعود تأسيس تنبكت إلى القرن (5هـ-11م)، وقد أسسها الطوارق إمغراشن. ويقال إن اسم تنبكت مأخوذ من اسم عجوز التي كان الطوارق قد عهدوا إليها بالبقاء في ذلك المكان حينما يغادرونه في رحلتهم الصيفية، ثم ما لبث بعض التجار أن عقدوا سوقا في ذلك المكان واتخذوا فيه مستودعات للبضائع، وبذلك أخذت المدينة طريقها إلى النمو التدريجي ولكن دون نظام، وفي أيام كتنن موسى بنى فيها قسرا ومسجدا وفي تلك الأثناء هاجر عدد من علماء ولاته وسكنوا تنبكت فزادها ذلك ازدهارا وبلغت مرحلة الأوج في الفترة ما بين 1493م-1591م. ينظر: عبد الرحمان السعدي: تاريخ السودان، ترجمة: هوداس، باريس، 1981، ص21؛ عبد القادر زبانية: "ملامح الحركة التعليمية في تنبكتو خلال القرن 16م"، الأصاله، (الجزائر)، ع/ 53، جانفي 1978، ص10.

(2) أبو العباس أحمد بن خالد الناصري: الاستقصاء لأخبار الدول المغرب الأقصى، ج5، دار البيضاء-المغرب: دار الكتاب، 1955، ص129.

(3) القادري محمد ابن الطيب : نثر المثاني.... المصدر السابق، ص1280؛ شوقي عطا الله الجمل: "تعقيب على رد علي مقال أحمد بابا التنبكتي السوداني"، مجلة دعوة الحق، (المغرب)، ع/5، السنة الثامنة عشر، يونيو 1977، ص52.

(4) هو أحمد بن عمر بن محمد أقيت، عرف بالحاج أحمد، وهو جد أحمد بابا التنبكتي، اشتهر بالعلم والدين، أخذ عن عدة شيوخ منهم جده لأمه الفقيه أندغ محمد قاضي مدينة تنبكت، وخاله الفقيه المختار النحوي، كما ارتحل إلى المشرق الإسلامي وحج سنة (890هـ-1485م)، ثم انتقل للتدريس وانتفع به خلق كثير من طلاب العلم، توفي ليلة جمعة من شهر ربيع الثاني من عام (943هـ-1536م). ينظر: أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ط1، تحقيق: عبد الحميد عبد الله الهرامة، طرابلس-ليبيا: منشورات كلية الدعوة الإسلامية، 1989، ص137، 138.

(5) أيوب الإشبيلي : المرجع السابق، ص265.

(6) الفقيه أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت، ولد في 01 محرم 929هـ-1522م، أخذ عن عمه محمود شتى العلوم، حج سنة (959هـ-1549م) ولقي بمصر العلماء والصالحين، ولقي في الحجاز بمكة والمدينة جماعة من كبار العلماء، واستفاد منهم في شتى فروع المعرفة، وعند عودته اشتغل بالتدريس، ومن آثاره: شرح مخمسات العشرينات الفزازية لابن مهيب في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، شرح منظومة المغيلي في المنطق، شرحا حسنا، وكتب حاشية على شرح التتائي على خليل ركز فيه على مواضع السهو منه وقطعا عن مواضع من خليل وشرحا يسيرا=

والاجتماعية في فتح قنوات المعرفة الإسلامية لتكوينه. كما حفظ بعض أمهات الكتب وقرأ النحو على عمه أبي بكر بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت⁽¹⁾. ودرس التفسير والحديث والفقه والأصول واللغة العربية والبيان والتصوف وغيرها على يدي محمد بغيغ⁽²⁾ الذي درس عنده أكثر من خمسة وعشرين كتابا في مختلف الفروع الإسلامية⁽³⁾، ومنحه إجازة علمية⁽⁴⁾. وتعلم عن والده الحديث والمنطق والمقامات وأجاز له جميع ما يجوز له⁽⁵⁾. وأخذ العلم في مكة المكرمة أثناء حجه⁽⁶⁾. وبذلك اجتهد في طفولته وشبابه في تحصيل العلم وخدمته، وقد وصفه السعدي (ت1065هـ-1655م) في قوله: "... اجتهد بداية أمره بخدمة العلم حتى برع جميع معاصريه ... ولا يناظره في العلم إلا أشياخه ... وسلم له علماء الأمصار بالفتوى وكان وقفا عند الحق ولو كان من أدنى الناس، ولا يدهن فيه ولو الأمراء والسلاطين..."⁽⁷⁾.

وقد تعرض أحمد بابا إلى نكبة لما غزا أحمد المنصور السعدي مملكة سنغي⁽⁸⁾ سنة 1591م، حيث اضطهد السكان وحتى العلماء والفقهاء الذين استنكروا ذلك. فتصدى أحمد بابا وعشيرته

= جدا على جمل الخونجي، وعلق على صغرى السنوسي والقرطبية وألف في الأصول، توفي في ليلة الاثنين 17 رمضان سنة 991هـ-1583م. ينظر:

أحمد بابا التنبكي: كفاية المحتاج... المصدر السابق، ج1، صص137، 138.

(1) هو أبو بكر بن أحمد بن أحمد بن عمر بن أقيت، ولد عام (932هـ-1526م)، وهو عالم مشهور ومدرس بارع، حج وزار الأماكن المقدسة وطاف في الشرق، ولقي فيه عدة علماء ورجع إلى تنبكت وبعد فترة من الزمان رجع إلى المدينة المنورة مع أسرته إلى أن توفي فيها سنة (991هـ-1583م). ينظر: أحمد بابا التنبكي: كفاية المحتاج... المصدر السابق، ج1، ص181.

(2) هو محمد بن محمود بن أبي بكر الونكري التنبكي المعروف بالبغيغ، أخذ العلم عن والده وخاله، ثم أخذ عن شقيقه أحمد بن الفقيه أحمد بن سعيد ولازمه، ثم ارتحلا إلى الحج مع خالهما، خلف بغيغ آثارا منها تعاليق وحواشي على المختصر فيهما على ما وقع شرح خليل، وتبع ما في الشرح الكبير للثائي عن السهو نقلا وتقريراً في عناية الإفادة وله فتاوى كثيرة، توفي في شهر شوال (1002هـ-1594م). ينظر: أحمد بابا التنبكي: نيل الابتهاج... المصدر السابق، ص341.

(3) محمد المحي: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ج1، القاهرة، 1284هـ، ص170.

(4) أحمد بابا التنبكي: كفاية المحتاج... المصدر السابق، ج2، ص240.

(5) المصدر نفسه، ج1، صص138، 139.

(6) أبو القاسم سعد الله: بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2003، ص81.

(7) عبد الرحمان السعدي: المصادر السابق، ص35.

(8) تأسست مملكة سنغي في القرن 7م ثم قامت إمبراطوريتهم على ضفتي نهر النيجر في القرن 13م، واتخذت من مدينة غاو عاصمة لها، وكانت تنبكت تمثل العاصمة الثقافية، حكمتها أسرة ضياء من القرن 7م إلى القرن 14م، ثم انتقل الحكم إلى عائلة آل سني، وبعدها انتقل الحكم إلى الأسكيين من سنة 1493م إلى سنة 1591م، وسقطت مملكة سنغي في يد الغزو المغربي سنة 1591م. ينظر: عبد الرحمان سعدي:

له، وكان على رأسهم أثناء الغزو وعمره آنذاك 36 سنة، وأسرته لم يكن لها شأن في السياسة لأنهم كانوا منشغلين بالعلم، فتحوف المنصور منهم، لأن كلمتهم كانت مسموعة لدى العام والخاص في تنبكت. وربما أن أحدهم قد وشى بهم، فقبض على سبعين عالما وفقهيا ووجيها مع أسرهم وأولادهم، ومنهم أحمد بابا والفقير أبو حفص بن عمر والقاضي عمر بن محمود⁽¹⁾، وكان ذلك أواخر محرم سنة 1012هـ/أكتوبر 1593م⁽²⁾، ووصلوا إلى مراكش في الأول من رمضان سنة 1012هـ/ماي 1594م، واستقروا بها مع عيالهم في حكم الثقاف (السجن) إلى أن انصرم أمد محتهم⁽³⁾، فسرحوا يوم الأحد 21 رمضان 1014هـ/ماي 1596م، ولكن أثناء طريقه إلى مراكش، وقعت له حادثتان كان لهما أثر على صحته ونفسه، الأولى سقوطه من على ظهر الجمل وكسرت ساقه، والثانية ضياع كمية كبيرة من الكتب قدرت ب ألف وستمائة كتاب⁽⁴⁾، وبعد إطلاق سراحه فرض على أحمد بابا الإقامة الجبرية بمراكش وعين مدرسا بجامع الشرفاء⁽⁵⁾.

وقد استغل فرصة وجوده القهري بمراكش للنهل من خزائن الكتب المغربية التي وجد بها ضالته من العلم التي لم تتوفر له في خزائن مكتبة تنبكت، كما اتصل بعلماء المنطقة وتأثر بالحركة الصوفية الآخذة في الازدهار ببلاد المغرب على عهده⁽⁶⁾. كما تتلمذ على يده الكثير من طلاب العلم، الذين أصبحوا من العلماء مثل الرجرجي (ت 1022هـ-1613م) وأبي القاسم بن أبي نعيم الغساني (ت 1032هـ-1623م)، وكذلك من تلاميذه أبو العباس أحمد بن القاضي

=المصدر السابق، ص 2، 3، 4؛ قاسم الزهيري: "الممالك الإسلامية القديمة في أفريقيا مملكة سنغاي"، مجلة دعوة الحق، (المغرب)، ع/10، السنة الخامسة، 1962، ص 79.

(1) محمود كعت: تاريخ الفتاش في ذكر الملوك وأخبار الجيوش وأكابر الناس، ط 1، تحقيق: حماد الله ولد السالم، بيروت-لبنان: دار الكتب العلمية، 2012، ص 215.

(2) أبو العباس أحمد الناصر السلاوي: الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى-الدولة السعدية-، ج 5، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد ناصر، دار البيضاء-المغرب: دار الكتاب: 1955، ص 127.

(3) أحمد بابا التنبكي: الآلي السندسية في الفضائل السنوسية، تحقيق: محمود براهيم، الجزائر: موفم للنشر، 2011، ص 150.

(4) محمد الصغير بن الحاج بن عبد الله الوفراني: نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، ترجمة: هوداس، باريس، 1888، ص 97.

(5) أحمد بابا التنبكي: كفاية المحتاج... المصدر السابق، ج 2، ص 284.

(6) أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 62.

(ت1025هـ-1616م) صاحب كتاب "جذوة الاقتباس" (1). وأخذ الناس والعلماء والطلبة وجمهور العامة يتدفقون عليه، لتلقي العلم والمعرفة، واكتسب شهرته بالمغرب الإسلامي وبلاد السودان بطولها وعرضها. مما جعل بعض رجال القضاة والإفتاء الذين يعيشون في كبريات المدن المغربية يتوجهون إليه لسماع الفتاوى الدينية التي تصدر عنه، وهذا لتمكنه من الفقه ومعرفة تراجم الرجال (2).

وإثر وفاة السلطان أحمد المنصور الذهبي سنة (1011هـ-1603م) عاد أحمد بابا إلى بلده بعد أن أذن له ابنه زيدان بالرجوع سنة (1013هـ-1605م)، وعندما خرج من مراكش قاصدا بلده شيعه أعيانها وطلبتها فأخذ بعضهم بيده عند الوداع وقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْخَبِيرَ فَرَسٌ مَلِكُكَ الْقُرْآنَ لَرَأْحَكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ (3)، على ما جرت عليه العادة من قراءتها عند وداع المسافر فيرجع سالما، فانتزع الشيخ يده وقال: "لا ردني الله إلى هذا المعاد ولا أرجعني إلى هذه البلاد" ثم لحق بتبكت (4). وقد إتفق المؤرخون على أن وفاته كانت في السادس من شعبان سنة 1036هـ الموافق ل الثاني عشر من نيسان سنة 1627م (5)، بينما يذكر الحجي تاريخ السابع من شعبان سنة 1032هـ الموافق ل السادس من حزيران سنة 1623م (6).

ومن أهم مؤلفاته في المذهب المالكي هي:

- إرشاد الواقف على التحرير وخصصت نية الخالف: طبع ضمن مجموع بفاس سنة 1307هـ.

- أسئلة في المشكلات: وهي عبارة عن أسئلة وجهها إلى العلامة السنهوري.

(1) أحمد إبراهيم دياب : "علماء بلاد السودان في القرنين السادس عشر والسابع عشر وأثارهم العلمية"، ضمن أعمال الملتقى: ندوة العلماء الأفارقة ومساهماتهم في الحضارة العربية الإسلامية، الخرطوم: 28-30 يوليو/تموز، 1983، ص133.

(2) القادري محمد ابن الطيب : نشر المثاني... المصدر السابق، ص1279.

(3) سورة القصص الآية 85.

(4) أبو العباس أحمد ناصر السلاوي : المصدر السابق، ص131.

(5) القادري محمد ابن الطيب : الإكليل والتاج... المصدر السابق، ص165.

(6) محمد الحجي : المصدر السابق، ص172.

- إفهام السامع بمعنى قول خليل في النكاح بالمنافع، أو النكت اللوامع في مسألة النكاح بالمنافع: طبع ضمن مجموع بفاس سنة 1307هـ.

- أنفوس الأغلاق في فتح الاستغلاق من فهم كلام خليل في درك الصادق: طبع ضمن مجموع بفاس سنة 1307هـ.

- ترتيب جامع المعيار للونشريسي، كتب منه كراريس.

- دور الوشائح بفوائد النكاح، وهو مختصر كتاب الوشائح للجلال السيوطي.

- دفع الضمير عن كلام ابن خير جواب عن سؤال ورد عليه من الدلاء.

- الزند الوري في مسألة تخيير المشتري.

- فتح الرزاق في مسألة الشك في الطلاق، وهو تقييد على قول خليل: "ولا يؤمر ان شك هل طلق أو لا؟" طبع ضمن مجموع بفاس سنة 1307هـ⁽¹⁾.

ثانيا/ ثناء مؤرخو وعلماء بلاد السودان والمغرب الإسلامي عليه:

1- مؤرخو وعلماء بلاد السودان:

قال فيه مؤرخ وقاضي مملكة سنغي محمود كعت: "العلامة سيدي أبي العباس أحمد بابا بن

أحمد ابن الحاج أحمد بن عمر بن محمد أقيت"⁽²⁾.

وقال عنه تلميذه عبد الرحمان السعدي: " سيد الوقت وبركته الشيخ العالم العلامة فريد

دهره ووحيد عصره"⁽³⁾.

وقال عنه البرتلي: ".... جد واجتهد في بداية أمره في خدمة العلم حتى فاق جميع

معاصريه"⁽⁴⁾.

(1) أحمد بابا التنبكتي : مرآة التعريف بفضل العلم الشريف، ط1، تحقيق: مصطفى بن مبارك عكلي التمكروني، الرباط: دار الأمان، 2015، صص31، 32.

(2) محمود كعت : المصدر السابق، ص247.

(3) عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق، ص244.

(4) الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاقي : فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق: عبد الودود ولد عبد الله وأحمد جمال ولد الحسن، مصر: الدار الكتب والوثائق المصرية، 2010، ص61

2- مؤرخو وعلماء المغرب الإسلامي:

يقول عنه أحمد المقرئ (ت1041هـ-1631م): "الشيخ المؤلف الكبير المصنف العلم الطائر الصيت أبو العباس أحمد بن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت، لقيته بمراكش... وانتفعت به واستفدت منه، وكنت كثيرا ما أذهب معه إلى زيارة الصالحين... وأعازني جملة كتب من خزائنه الفريدة... وكتب لي خطه بذلك مرارا عديدة..."⁽¹⁾.

أما صاحبه الأستاذ الحاج بن الحاج فهدى التواتي المراكشي فيقول: "... فتح الله علي بملاقة عالم الدنيا ومعلمها، حامل لواء الأحاديث ومفهمها، رافع رواية مذهب الإمام مالك ومقدمها... فلازمت بابه المبارك ليالي وأياما وشهورا وأعواما، وتضلعت من زمزمه بما فيه مقنع، وكنت معه كالذي يأكل ولا يشبع..."⁽²⁾.

وقال عنه سعيد ابن إبراهيم قدورة الجزائري: "الفقيه المُجيد الحافظ المفيد أبا العباس سيدي أحمد بابا"⁽³⁾.

وقال عنه القادري: "...الإمام الشهير، العالم المحقق الكبير... نفع الله بهذا القطر المغربي، وحمل منه واستفدنا ما عنده من التحقيق والتحرير، وقد اشتهر فيه أهله، وتحققت فيه مكانته قدره وفضله..."⁽⁴⁾.

(1) أحمد المقرئ: روضة الأس العاطرة الأنفاس في ذكر ما لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، ط2، الرباط: مطبعة مالكية، 1983، ص303.

(2) أبو عبد الله محمد البرتلي: فتح الشكور في معرفة أعيان علماء تكرر، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1981، ص33.

(3) أحمد بابا التنبكي: معراج الصعود-أجوبة أحمد بابا حول الاسترقاق-، ط1، تحقيق: فاطمة الخراق وجون هانيوك، الرباط: منشورات معهد الدراسات الإفريقية، 2000، ص43.

(4) القادري بن الطيب: نشر الثاني... المصدر السابق، ص1277، 1278.

وذكر مكانته أحد تلاميذه وهو أبو عبد الله محمد بن يعقوب الآيسي⁽¹⁾: "... العلامة الحافظ المحدث..."⁽²⁾.

وحلاه أبو زيد عبد الرحمان التمارني⁽³⁾ في قوله: "شيخنا الإمام المحدث الرواية"⁽⁴⁾. وقال الحضيكي (ت 1189هـ-1775م) عنه: "... كان رضي الله عنه إماما في الحديث والفقه وغيرها ومدرسا فصيحاً ناصحاً منصفاً مشهوراً..."⁽⁵⁾.

ثالثاً/ أثر المذهب المالكي في بلاد السودان:

انتشر المذهب المالكي منذ أواسط القرن الثاني للهجرة/8م في العالم الإسلامي عامة والغرب الإسلامي خاصة وكان المذهب السني هو السائد فيه، وهذا ما أكده ابن خلدون (ت 808هـ-1406م) في قوله: "وأما مالك رحمه الله فاخص بمذهبه أهل المغرب والأندلس وإن كان يوجد في غيرهم إلا أنهم لم يقلدوا غيره إلا قليل..."⁽⁶⁾. واستمر في الانتشار بعد ذلك إلى أن وصل إلى بلاد السودان مع منتصف القرن الخامس الهجري/11م وهذا ما ذكره صاحب كتاب ترتيب المدارك في قوله: "... غلب مذهب مالك على الحجاز والمغرب الأقصى إلى بلاد من أسلم من السودان..."⁽⁷⁾. وترجع سيادة المذهب المالكي وهيمنتته في بلاد السودان والمكانة التي حظي بها في نفوس العامة والخاصة إلى عدة عوامل منها:

(1) هو بن يعقوب الإيبي ولد سنة (996هـ-1559م)، وهو أديب وناظم مراكشي الأصل، كان بمدح كل من يعجبه وكان يتصدر الأدباء في كتابتهم توفي سنة (1046هـ-1637م). ينظر: العباس بن إبراهيم السمالي: الأعلام بمن حل بمراكش وأغامت من الأعلام، ج 2، ط 1، فاس، 1936، ص ص 350-352.

(2) أحمد بابا التنبكي: جلب النعمة ودفع النقمة بمجانبة الولاة الظلمة، ط 1، بيروت-لبنان: دار ابن حزم، 2011م، ص 63.

(3) ولد بقرية تمارت قدرت ولادته سنة (974هـ-1560م)، وتلقى علمه في مسقط رأسه وبعد ذلك اتجه إلى السوس لطلب العلم، ومن مؤلفاته الفوائد الجمية في إسناد علوم الأمة، ونور الباهر في نصرة الدين الظاهر، وتوفي سنة (1060هـ-1650م). ينظر: ليفي برفنصال: مؤرخو الشرفاء: تعريب عبد القادر الخلاصي، المغرب: دار المغرب، 1977، ص 181.

(4) أبي زيد عبد الرحمان التمارني: الفوائد الجمية في إسناد علوم الأمة، ط 1، تحقيق: يزيد راضي، بيروت-لبنان: دار الكتب العلمية، 2007، ص 133.

(5) محمد بن أحمد الحضيكي: طبقات الحضيكي، ج 1، ط 1، تحقيق: أحمد بومركو، المغرب: مطبعة النجاح الجديدة، 2006، ص 45.

(6) عبد الرحمان بن محمد بن خلدون: مقدمة ابن خلدون، بيروت-لبنان: دار الأرقم، د.ت، ص 487.

(7) القاضي عياض: ترتيب المدرك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ج 1، ط 2، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، المغرب، 1983، ص 65.

لعب المغرب الإسلامي دورا هاما في نشر الإسلام ببلاد السودان، ويعود الفضل في ذلك إلى التجار والدعاة والعلماء والمهجرات العربية والمتصوفين. فحملوا إليهم لواء المذهب المالكي. وكانت من أولوياتهم تثبيت الإسلام على هذا المذهب، وبذلك اعتبر المغرب الإسلامي منطلقا وقاعدة رئيسية لانتشاره في بلاد السودان⁽¹⁾.

كما كانت مدينة رسول الله ﷺ محط استقبال المسلمين، واستقطاب طلاب العلم عامة والمغاربة خاصة وهذا ما يفسر لنا انتشار المذهب المالكي عندهم، حيث اختص الإمام مالك بمذهبه في الغرب الإسلامي لأن أغلب رحلاتهم كانت باتجاه الحجاز ومنتهى سفرهم للمدينة. فسار على نهجهم طلاب وعلماء بلاد السودان وذلك من خلال توجههم إلى المدينة قاصدين الحج وطلب العلم. وهذا من أهم العوامل التي أسهمت في ترسيخه ببلاد السودان لأنهم يعتبرون كل ما جاء من مدينة الرسول ﷺ من أمور دينية وفقهية هو الحق لهذا تعلقوا وتشبثوا به⁽²⁾.

ملائمة المذهب المالكي لطبيعة أهل السودان فقد كان لتشابه الطبيعة بين الحجاز والمغرب الإسلامي وبلاد السودان سببا في انتشاره، فهو أقرب المذاهب الفقهية لمزاجهم وطبيعتهم لأنه يعتمد على الواقع يأخذ بأعراف الناس وعاداتهم ففقهه عملي أكثر منه نظري، ويتماشى مع طبيعة الفطرة وبساطتها ووضوحها دون تكليف أو تعقيد ولأن أهل السودان كأهل المغرب يميلون إلى البساطة وينفرون من النظريات المتطرفة والتأويلات المتكلفة قابل ذلك ميلهم وهواهم لهذا المذهب. كما أنه يخلو من تداخل الآراء فقد بقي نقيا بعيدا عن الشوائب. بالإضافة إلى أنه ينفر من الجدل ويستند على القرآن والحديث يأخذ بالنص الصريح الذي لا يقبل تأويلا⁽³⁾.

(1) سحر عنتر محمد أحمد مرجان: فقهاء المالكية وآثارهم في مجتمع السودان الغربي، ط1، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2011، ص102.

(2) عبد الرحمن محمد ميغا: الحركة الفقهية ورجالها في السودان الغربي من القرن 8 إلى القرن 13 الهجري، المملكة المغربية: مطبعة البيضاء، 2011، ص35.

(3) عمر الجديدي: محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، الرباط: منشورات عكاظ، 2016، ص30؛ سحر عنتر محمد أحمد مرجان: المرجع السابق، ص102 وما بعدها.

لقد لعب المرابطين دورا كبيرا في نشر الإسلام والمذهب المالكي في معظم مناطق بلاد السودان خاصة بعد أن تم القضاء على إمبراطورية غانة⁽¹⁾ الوثنية، وترعم هذه الحركة الإسلامية كل من الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي (ت443هـ) وعبد الله بن ياسين الجزولي (ت451هـ) الذي واصل مسيرته الجهادية حتى انتشر الإسلام في الصحراء وما ورائها⁽²⁾.

حيث كان رباطه مركزا للتعليم الإسلامي، فقد كانوا يدرسون فيه العقيدة والفقهاء وسائر العلوم الشرعية، وبما أنه كان مالكي المذهب فقد وجه أتباعه إليه، فكان تمهيدا لأرضية خصبة للمعتنقين الجدد للإسلام، فتلقوا المذهب تلقائيا وعفويا، لأنه مذهب أساتذتهم وشيوخهم. وهو الرباط الأول في المنطقة ثم تفرعت عنه رباطات أخرى في الصحراء وبلاد السودان⁽³⁾، وكان من الطبيعي أن يتبعهم السودانيون في مذهبهم⁽⁴⁾.

ويعد تواصل الحواضر الثقافية ببلاد السودان كتنبكت وجني⁽⁵⁾ وغاو⁽⁶⁾ بالمراكز العلمية في المغرب الإسلامي خاصة القيروان وتلمسان وتوات والقرويين الأثر الواضح في حضارتها وأخذها

(1) هي أول إمبراطورية قامت في السودان الغربي، ويعود تاريخها للقرن 3م، وعاصمتها كومي صالح، وبلغت درجة كبيرة من الثراء بفضل مناجم الذهب، والحكم القائم فيها يتحلى بالتسامح الشديد مما ساعد على انتشار الإسلام بين الأهالي سلما، وسقطت سنة (637هـ-1240م) على يد إمبراطورية مالي. ينظر: مؤلف مجهول: كتاب الاستصار في عجائب الأمصار، تعليق: سعد زغلول، العراق: دار الشؤون الثقافية العامة، 1989، ص21؛ أبي عبد الله البكري: المغرب في بلاد افريقية والمغرب - جزء من كتاب المسالك والممالك -، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، د.ت، ص ص 174، 175؛ أبي العباس أحمد القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة، ج5، القاهرة: دار الكتب المصرية، 1922، ص284؛ محمد الغربي: "الجزور الإدريسية لإمبراطورية غانا والأصول السنغالية لدولة المرابطين"، مجلة دعوة الحق، (المغرب)، ع/269، السنة التاسعة وعشرون، أبريل 1988، ص ص 285، 286.

(2) مؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ط1، تحقيق: سهيل زكار وعبد القادر زمامة، المغرب الأقصى: دار البيضاء-دار الرشد الحديثة، 1979، ص17.

(3) محمد بشر عيسى جني: جهود علماء السنغال في خدمة المذهب الأشعري من القرن السابع عشر الى القرن العشرين ميلادي، المملكة المغربية: دار أبي رقراق، 2016، ص15.

(4) أبو القاسم سعد الله: على خطى المسلمين حراك في التناقض، ط1، الجزائر: عالم المعرفة، 2009، ص291.

(5) مدينة جني منافسة لمدينة تينكت في نشاطها التجاري والثقافي وهي من أقدم المدن التي لعبت دورا ثقافيا وتجاريا في غرب إفريقيا، تأسست قبل تينكت بوقت بعيد لكن لم تدخل في دائرة النفوذ الإسلامي إلا في القرن (5-11م) وأسلم أهلها سنة (441هـ-1050م) مع ملكهم كئبر، واحتلت الدرجة الثانية في الميدان الثقافي بعد تينكت في عهد الأسكيين، ينظر: عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص ص 12، 13.

(6) عرفت مدينة غاو في عهد مملكة مالي تأسيس المدارس والمعاهد والمساجد. كما عملا لأسيكيني على توسيع المسجد الذي بناه الساحلي في عهد السلطان منسي موسى. وشجعوا العلماء على القدوم إلى غاو وبذل العطاء والمنح لهم، واقتناء الكتب والاحتفاظ بها في مكتبهم الخاصة =

الإسلام على المذهب المالكي والكتابة على الطريقة المغربية. وقد هاجر بعض العلماء من المغرب الإسلامي إلى الحواضر الثقافية في بلاد السودان، وهذا ما أشارت إليه المصادر السودانية حيث يذكر عبد الرحمان السعدي أن علماء توات كانوا يمثلون نسبة هامة من مشاهير علماء مدارس ومساجد بلاد السودان⁽¹⁾. ومن أهمهم أبو القاسم التواتي (ت 922هـ-1516م) الذي يعتبر من أشهر أئمة جامع سانكري فقد كان أسكيا⁽²⁾ محمد⁽³⁾ توري⁽⁴⁾ مؤسس مملكة سنغي يصلي ورائه ويحرص على لقائه بعد الصلاة⁽⁵⁾. وكل هذه النماذج أسهمت في توطيد ركائز المذهب المالكي في المنطقة.

ومن العوامل التي ساعدت أيضا على ازدهار الحركة العلمية والفقهية وفق المذهب المالكي ببلاد السودان كثرة الكتب والمخطوطات الآتية من المغرب الإسلامي إلى أسواقها خاصة تنبكت التي كان يتهافت عليها التجار لبيعها، مما جعل مكتباتها تزخر بأهم الكتب المعروفة في ذلك العصر بمختلف

=فيها وتشجيع الطلاب على الدراسة بها، وبهذا استطاعت أن تتبوأ منزلة عالية في عالم الحضارة الإسلامية، وشاركت مشاركة فعالة في دفع حركة التطور الحضاري الإسلامي ببلاد السودان. ومثلت العاصمة السياسية لمملكة سنغي. ينظر: عبد الفتاح مقلد الغنيمي: حركة المد الإسلامي في غرب إفريقيا، القاهرة: مكتبة النهضة الشرق، 1985م.

(1) عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص 237.

(2) جاء لقب أسكيا بعد انهزام سني بار على يد أسقيا محمد توري وتناهي الخبر إلى بنات سني علي بهزيمة أخوهم أمام خصمه، قالوا أسكيا أسكيا التي تعني في لغة سنغي لا تكون إياه، ولما سمع أسقيا محمد توري بمقولتهن أصر على أن يكون هذه المقولة " أسكيا " لقباً للملك سنغي. ينظر: عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص 72.

(3) الأُسكيا محمد الأول سركولي الأصل، وسكنت عائلته حول نهر النيل الأوسط وامتزجت مع قبيلة سنغي، وبدا عهد توسع تلك الإمارة منذ سنة 1336م، بدأ عهد التوسعات الكبرى تحت قيادته منذ عام 1465م، وفي سنة 1493م قام بثورة ضد سني علي واستولى على عرش سنغي فبدأ بذلك عهد الأُسكيين في سنغاي واستمر إلى غاية سنة 1591م. ينظر: محمد بن عبد الكرم المغيلي: أسئلة الأُسقيا أجوبة المغيلي، تحقيق: عبد القادر زبادية، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1973، ص 10.

(4) لفظ توري كان يطلق على المالكي تميزا له عن أتباع المذاهب الأخرى التي كانت موجودة في السودان الغربي ويذكر لنا ابن بطوطة في قوله: "...والسنينون المالكيون من البيض يسمون عندهم توري ..."، وهذا دليل على أن أسرته قديمة في الإسلام وعلى المذهب المالكي. ينظر: أبو عبد الله محمد ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ط 1، تحقيق: محمد عبد الرحيم، بيروت-لبنان: دار الفكر، د.ت، ص 371.

(5) عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص 60.

الفنون، وقد أكد لنا ذلك حسن الوزان في قوله: "...أنه لا تخلو قافلة من المغرب إلى تنبكت من الكتب لأن أسعارها تفوق أسعار السلع الأخرى..."⁽¹⁾.

وإن غلبة المذهب المالكي في الغرب الإسلامي على المذاهب الأخرى تركت أثرا قويا في بلاد السودان إذ أسهم في توطيد أركان الإسلام في المنطقة، كما أسهمت في توحيد أحكام القضاء واصطبغ الثقافة العربية الإسلامية بالمنطقة بصبغة المذهب المالكي. فأصبحت كتب الدراسة كلها تدور حول فقه مالك والعلوم المساعدة على فهمه. وكان المذهب الرسمي للدولة وصارت السلطة القضائية والتشريعية والتنفيذية كلها تعتمد عليه في إصدار الأحكام. وهكذا أصبح في بلاد السودان عامة وفي تنبكت خاصة المذهب الوحيد الذي لا رد لقضائه ولا معقب لأحكامه، فلا مذهب إلا مذهب مالك ولا فقه إلا فقه مالك⁽²⁾.

ودليلنا على أن بلاد السودان ساد فيها المذهب المالكي هو انتشار الكتب الموسوعية الفقهية المؤلفة على هذا المذهب المتواجدة في المراكز العلمية ومن أهمها:

كتاب "الموطأ" للإمام مالك بن أنس (ت 179هـ - 795م) نظرا لأهميته في المذهب المالكي فقد اهتم به علماء بلاد السودان واعتنوا به كثيرا تفقها ودراسة وحفظا ووضعوا عليه عدة شروح ومختصرات وتعليقات ومن بين العلماء الذين اهتموا به أحمد بابا التنبكتي الذي أخذه عن والده⁽³⁾. وكذلك كتاب "المدونة" للإمام أبو سعيد عبد السلام سحنون (ت 240هـ - 854م) وهي أصل المذهب وسند الفقهاء في القضاء والإفتاء بعد الموطأ في الفقه المالكي، واشتهرت ببلاد السودان فتداولها العلماء والطلاب بالدراسة⁽⁴⁾.

وكتاب "الرسالة" لأبي زيد القيرواني (ت 386هـ - 996م) وهي من الكتب التي حظيت باهتمام علماء المنطقة في الحلقات العلمية وتردد ذكرها في مصادرهم ويذكر محمود كعت أن

(1) حسن الوزان : وصف إفريقيا، ج2، ط2، ترجمة : محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت- لبنان: دار الغرب الإسلامي، 1983، ص167.

(2) عبد الرحمان محمد ميغا: المرجع السابق، ص34.

(3) عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص43.

(4) المصدر نفسه، ص43.

أسكيا داوود (ت1582م) ملك سنغي كان يقرأها (1). وكذلك كتاب "التهذيب" للبرادعي (ت438هـ-1046م) وهو من الكتب المعتمدة في الفتوى عند المالكية وقد انتشر عندهم (2). وكتاب "البيان والتحصيل" للقرطبي الجد (ت520هـ-1126م)، وهو من الموسوعات الفقهية في هذا المذهب التي كانت متداولة في حلقاتهم العلمية (3). وكتاب "مختصر خليل" للإمام خليل بن إسحاق المالكي (ت776هـ-1374م) وهو من أهم المختصرات التي حظيت باهتمام العلماء في المغرب الإسلامي وفي بلاد السودان ويعد أحمد بابا التنبكتي من العلماء الذين وضعوا عليه حاشية (4).

وأيضاً من الكتب المعتمدة في التدريس في بلاد السودان كتاب "الأحكام" للإمام البرزلي (ت844هـ-1444م)، وكتاب "المعيار المعرب" للونشريسي (ت914هـ-1508م)، و"المنتقى في شرح الموطأ" للباحي (ت494هـ-1101م)، و"تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام" لابن عاصم الغرناطي (ت829هـ-1426م)، و"منظومة القرطبي في العبادات على مذهب مالك"، و"مقدمة القرطبية بشرح الشيخ زروق" لأبي بكر يحيى سعدون القرطبي (ت567هـ-1172م)، و"النوادر والزيادات" لابن أبي زيد القيرواني، وكتب المغيلي (ت909هـ-1502م) "أسئلة الاسقيا وأجوبة المغيلي" و"تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلطين"، وكل هذه الكتب كانت تدرس عندهم (5). ولم يكتف أهل السودان بدراسة هذه المؤلفات فحسب بل درسوها دراسة وافية ووضعوا عليها شروحا واختصاصات وهوامش وتعاليق (6).

(1) محمود كعت: المصدر السابق، ص153.

(2) عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص47.

(3) المصدر نفسه، ص43.

(4) أحمد بابا التنبكتي: نيل الانتهاج... المصدر السابق، ص171.

(5) محمود حسن أحمد: "دور العرب في نشر الحضارة في غرب أفريقية"، مجلة التاريخية المصرية، (القاهرة)، ع/14، 1968م، ص81.

(6) محمد أبو محمد إمام: "سيادة المذهب المالكي في إفريقيا جنوب الصحراء في ظل الممالك الإسلامية"، المؤتمر الدولي: الإسلام في إفريقيا، 06-07 ذو القعدة 1427 هـ/26-27 نوفمبر 2006، ص108.

رابعا/ إسهاماته في خدمة المذهب المالكي

1- في مجال التراجم والأعلام

كان لدخول المذهب المالكي لبلاد السودان أثر كبير في الحياة العلمية والثقافية، وهذا لتبنتهم بهذا المذهب، لذلك اهتم العديد من المؤلفين السودانيين في الكتابة في هذا الجانب فازداد الإنتاج وتمثل ذلك في تراجم العديد من العلماء المالكية وتتبع أحوالهم وتمثل ذلك في.

أ- كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج⁽¹⁾

يتناول هذا الكتاب تراجم المذهب المالكي من الأدب والتصوف والتاريخ⁽²⁾، وقد ألفه التنبكي ليكون مستدركا على كتاب "الديباج المذهب"⁽³⁾ لأبي إسحاق إبراهيم بن فرحون. وقد بدأ بكتابه قبل حملة المنصور وأتمه بمراكش وهو في السجن بعد سنتين فقط من إقامته الإيجابية (أتمه في 07 جمادى الأولى 1005 هـ الموافق ل: 27 ديسمبر 1596 م)⁽⁴⁾. وهذا بفضل ما أتاحت له من فرصة للتردد على مكتبات مراكش العديدة بجامع الشرفاء، ومكتبة ابن يوسف وخاصة خزانة السلطان أحمد المنصور الذهبي، وهي مكتبات غنية بالمخطوطات النفيسة والكتب النادرة. هذا فضلا عن تعدد انتشار المكتبات العامة والخاصة في عهد السعديين في مختلف المناطق، وضم كتاب نيل الابتهاج 802 ترجمة من الفقهاء المالكية (المغرب الأقصى، الجزائر،

(1) سمي هذا الكتاب بأسماء مختلفة حسب ورودها في عناوين النسخ، ففي إحداها كان عنوانه "نيل الابتهاج في التذيل على الديباج"، وأخرى بعنوان "نيل الابتهاج في تطريز الديباج"، وأخرى بعنوان "وجه الابتهاج في التذيل على الديباج". ينظر: أحمد بابا التنبكي: نيل الابتهاج...، المصدر السابق، ص 87.

(2) أبو القاسم سعد الله: محوث في التاريخ... المرجع السابق، ص 87.

(3) أول من صنف في هذا المجال الواسع هو القاضي عياض (ت 544هـ-1149م) في كتابه "ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعيان مذهب مالك"، ثم جاء بعده ابن فرحون (ت 799هـ-1397م) ليصنف كتاب جديد سماه "الديباج المذهب في أعيان المذهب"، وذيل على كتاب ابن فرحون مؤلف آخر هو بدر الدين القرافي (ت 946هـ-1536م)، وصنف بعده أحمد بابا التنبكي (ت 1036هـ-1627م) في كتابه "نيل الابتهاج في تطريز الديباج"، وقد جاء بعد التنبكي على ذيل كتابه القادري محمد بن الطيب (ت 1124هـ-1712م) صنف كتاب سماه "الإكليل والتاج في تذييل كفاية المحتاج". ينظر: أحمد بابا التنبكي: نيل الابتهاج... المصدر السابق، ط 1، ص 22.

(4) عبد الجليل التميمي: "مساهمة أحمد بابا التنبكي في الحضارة العربية الإسلامية من خلال كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج"، ضمن أعمال الملتقى: ندوة العلماء الأفارقة ومساهمتهن في الحضارة العربية الإسلامية، الخرطوم: 28-30 يوليو/تموز، 1983، ص 231.

تونس، طرابلس، الأندلس، والمشرق وبلاد السودان) الذين عاشوا منذ عهد ابن فرحون إلى عصر أحمد بابا التنبكتي حيث أعطى لنا صورة عن فقهاء المالكية ووحدهم المذهبية في العالم الإسلامي. وأما سبب تأليفه فيوضحه أحمد بابا بقوله: "...لما كان علم التاريخ ومعرفة الأئمة... من الأمور العلية، ويعتني به كل ذي همة ذكية... اعتنى به الأئمة قديما وحديثا... فما زالت نفسي تحدثني من قديم الزمان وفي كثير من ساعات الأوان باستدراكي عليه ببعض ما فاته أو جاء بعده من الأئمة الأعيان" (1).

وقد أشاد المؤرخون بكتاب أحمد بابا التنبكتي فقد عبر عنه عبد الجليل التميمي في مقال له عن كتاب "نيل الابتهاج" أن المعلومات البليوغرافية المتعلقة بالقرن العاشر وأوائل الحادي عشر الهجري/16-17م تكاد تكون سليمة وموثوق بها فقال: "إن الكتاب يعتبر أساسا سجلا للأعلام الأندلسيين والتونسيين والمغاربة والجزائريين والطرابلسيين" (2). واعتبر بروفنسال هذا الكتاب من أهم المصادر المغربية المتعلقة بالتراجم المالكية فقال: "إن أحمد بابا التنبكتي جدير بأن يسجل اسمه ضمن المؤرخين غير المباشرين للمغرب أواخر القرن السادس عشر الميلادي" (3).

ب- كتاب كفاية المحتاج من ليس في الديباج

نيل الابتهاج هو أصل كفاية المحتاج الذي يعد تلخيصا للأول، حيث اقتصر التنبكتي في كفاية المحتاج من ليس في الديباج على مشاهير العلماء وأصحاب التصانيف دون غيرهم، لكنه ضم استدراقات وزيادات على نيل الابتهاج، وكفاية المحتاج ليس مجرد اختصار لنيل الابتهاج بل هو تهذيب وتدارك وتنقيح، وقد أتمه في 15 صفر 1012 هـ الموافق 24 يوليو 1603م وضم كتاب كفاية المحتاج 704 ترجمة. ويعتبر كتاب كفاية المحتاج من أهم مصادر التاريخ العلمي فيما يخص المؤلفين والمؤلفات والمدارس ومناهجها في بلاد الغرب الإسلامي وبلاد السودان وذلك

(1) أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج... المصدر السابق، ص ص26، 27.

(2) عبد الجليل التميمي: المرجع السابق، ص ص234، 235.

(3) ليفي برفنسال: المرجع السابق، ص 179.

للفترة الممتدة من عهد الموحدين إلى زمن السعديين، وهي المرحلة التي تناولها كتاب كفاية المحتاج، وقد ترجم التنبكتي لعلماء كثر في كفاية المحتاج كان المؤرخون قد أهملوا التعريف بهم، والكتاب أيضا مصدرا لبعض أخبار السودان الغربي وأخبار طائفة من أعلامه، وتكمن أهمية كتاب كفاية المحتاج في كونه نقل عن كتب هي في حكم الضياع في الوقت الحالي، علاوة على الفوائد العلمية والفقهية واللغوية والتاريخية التي يذكرها الكاتب على سبيل الاستطراد. أما عن دوافع تأليف هذا الكتاب فيقول التنبكتي: "...فهذا الجزء اختصرته من الدليل الذي ذيلت به كتاب الديباج المذهب... للإمام برهان الدين بن فرحون... اشتمل على جماعة لم يذكرها من أهل عصره وغيرهم ومن بعده، مع زيادات في تراجم جماعة ذكرهم..."⁽¹⁾.

2- في مجال النوازل - نازلة معراج الصعود-

تصنف هذه الرسالة ضمن المصادر وهي من نوع النوازل أو الأجوبة على بعض المسائل المستحدثة في عصره، وهو ما أعطاها طابع المصدر الذي يعكس جانب من الواقع الحياتي الحي الذي تتدخل فيه عوامل مختلفة دينية واجتماعية واقتصادية وسياسية، وتكشف في جانب آخر الحكم الشرعي للقضايا أو النوازل التي تتصل بحياة الناس في أوضاعهم المختلفة. وجاءت هذه الرسالة جوابا عن سؤال وجهه أحد العلماء من مدينة توات الفقيه سعيد بن إبراهيم قدورة الجزائري⁽²⁾ إلى الفقيه أحمد بابا التنبكتي في سنة (1021هـ-1614م). وقد تأخر الجواب عنه إلى سنة (1023هـ-1617م) لأسباب سكت عنها المجيب، وجاءت هذه الرسالة بعنوان اسمها مؤلفها أحمد بابا بقوله: "...معراج الصعود إلى نيل حكم مجلب السود، وإن شئت فسمه

(1) أحمد بابا التنبكتي: كفاية المحتاج... المصدر السابق، ج1، ص67.

(2) وهو سعيد ابن إبراهيم المعروف بقدورة أصله من مدينة قدورة القرية من جربة من الساحل التونسي هاجرت أسرته إلى الجزائر، واسمه سعيد بن عبد الرحمان ولد بمدينة الجزائر سنة (979هـ-1571م) وتلقى العلم على يد الشيخ محمد ابن أبي القاسم المطاطي وبعد ذلك سافر إلى الحج مع أبيه أجهل سنة (993هـ-1585م)، وسافر سنة (1012هـ-1623م) إلى تلمسان ليتلمذ على يد الشيخ سعيد المغربي ثم انتقل لتوات وتوفي بها سنة (1066هـ-1656م)، ومن أهم مؤلفاته شرح خطبة مختصر خليل في الفقه وحاشية على شرح اللقاني بخطبة خليل وحاشية على شرح الصغرى السنوسي وشرح المنظومة الخزرجية في النحو. ينظر: محمد الصغير الأفراني صفوة من انتشار من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، ط1، تحقيق: عبد المجيد الحياتي، دار البيضاء-المغرب: مركز التراث الثقافي المغربي، 2004، ص220؛ أبي القاسم محمد الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، ج1، الجزائر: موفم للنشر، 1991، ص66.

الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان... " (1). وقد استعمل أحمد بابا التنبكتي لفظ "المعراج" استدعاءً لمعجزة "الإسراء والمعراج"، ونفهم منه رغبة أحمد بابا في استيعاب مضمون فتواه التي تستلزم الصعود إليها ومعنى لفظ "المعراج" (المصعد والسلم) (2). فقد ربط جوابه للرسالة في أنه اعتبر بلاد السودان جزءاً من المغرب الإسلامي في الجانب الفقهي والمذهبي والثقافي والاجتماعي والتجاري. وبرر ذلك من خلال استناده إلى قدم انتشار الإسلام ببلاد السودان منذ أمد بعيد ودخولهم في الإسلام كان طوعاً. ومن معالم الوحدة المذهبية التي احتوتها الرسالة أيضاً في أن كون السؤال آتياً من الشمال وموجهاً إلى أهل الجنوب من بلاد السودان.

كما وصل صداها المذهبي في اعتبارها مصدراً في بلاد السودان وفي المغرب الإسلامي لأنه اعتمد في جواب رسالته على معلومات تتعلق على تمسك بلاد السودان بالمذهب المالكي. وتتجلى من خلال الفتاوى التي بنا عليها التنبكتي رأيه في رسالة "معراج الصعود إلى نيل حكم مجلوب السود"، كلها فتاوى صدرت من فقهاء مالكيين مشهورين في العالم الإسلامي من أمثال أبي الاصبع عيسى بن سهل (ت 486هـ-1093م)، وابن لبابة القرطبي (ت 314هـ-926م)، وسحنون (ت 240هـ-854م)، وابن زرب (ت 381هـ-991م)، وابن إسحاق إبراهيم ابن هلال السجلماسي (ت 903هـ-1498م) (3)، كل هذا يبين لنا مدى تمسك أحمد بابا بمذهب المذهب ومدى تأثره بالمغرب الإسلامي. ويرجع ذلك إلى دراسته واهتمامه بالكتب المالكية التي أخذها عن شيوخه في تنبكت وفي مراكش عندما نفي إليها.

وقد ألف محمد ابن إبراهيم الغاني رسالة في نفس الموضوع التي سماها: "تنبية أهل الطغيان على حرية السودان" الذي اعتمد على رسالة أحمد بابا التنبكتي في تأليف رسالته، كما حظيت باهتمام كبير لدى زعماء الإصلاح في إفريقيا في مطلع القرن الحادي عشر الهجري/19م، حيث استند إليها الشيخ عثمان دان فوديو زعيم حركة الجهاد في شمال نيجيريا وخليفته محمد بللو في تبرير الجهاد

(1) أحمد بابا التنبكتي: معراج الصعود... المصدر السابق، ص 70.

(2) أحمد السعيد: "تحقيق المخطوطات العربية الإفريقية - قراءة في معراج الصعود وإخبار الأخبار-"، مجلة الثقافة والتراث، الإمارات العربية المتحدة، ع/70، السنة الثامنة عشرة، يوليو 2010، ص 111.

(3) أحمد بابا التنبكتي: معراج الصعود... المصدر السابق، ص 43.

ضد الكفار من قبائل الهوسا⁽¹⁾. ونقل أبو العباس أحمد ناصر السلاوي في الاستقصاء حيث ينقل منها فقرات طويلة⁽²⁾. لأن رسالة أحمد بابا تحتوي على معالم الصلات العلمية والثقافية والمذهبية والدينية التي كانت قائمة بين علماء المغرب الإسلامي وعلماء بلاد السودان عن طريق تبادل الأفكار والكتب والاستفسار هذا ما يظهر لنا من الوقائع والنوازل والقضايا التي كانت مطروحة في زمانه.

خاتمة:

في ختام دراستنا هذه تمكنا من استخلاص النتائج التالية:

يعتبر أحمد بابا التنبكي همزة وصل بين المغرب الإسلامي وبلاد السودان ورمزا للوحدة المذهبية لأنه اشتهر بالمذهب المالكي فقد أحلص له كل الإخلاص وتجلي ذلك في مؤلفاته كما تفاعل مع البيئة المغربية وظروفها السياسية وأحوالها الاجتماعية منذ مجيئه إليها، مشاركا بثقافته وعلمه، فهو لا يختلف في ذلك عن علمائها الذين كانت تربطهم به وشائج المحبة والتقدير والإجلال، وقد ظل بها إلى أن أذنت له ساعة الرحيل، فعاد إلى بلده. وبذلك استطاع أحمد بابا أن ييسط هيئته وفكره في الفقه المالكي على المغرب الإسلامي وبلاد السودان.

كما تعتبر مؤلفاته من كتب التراجم "نيلا لابتهاج" و"كفاية المحتاج" اللذين جمع فيهما تراجم أبرز علماء المالكية في المشرق والمغرب الإسلامي وبلاد السودان، ويعتبران دليلا على تمكن المذهب المالكي في بلاد السودان وارتباطها بالمدرسة المالكية المغربية، وهما مصدرين مهمين لا غنى عنهما لمعرفة التراث المالكي وتاريخه وتطور الحركة العلمية والفكرية عبر العصور. وقد اعتمد في تأليفهما على المنهج المغربي وبذلك بين لنا فضل المذهب المالكي في المغرب الإسلامي على أهل المنطقة.

تتميز رسالة "معراج الصعود" في أنها تشكل نصا مؤسسا في الفقه المالكي ومصدرا أساسيا من مصادر تاريخ بلاد السودان في العصر الحديث، إضافة إلى الضوابط الشرعية التي تحكم الاسترقاق عند المالكية في المغرب الإسلامي. فقد كان أحمد بابا مالكيا متحمسا لمذهبه واتضح ذلك من خلال مؤلفاته ونجده يهتم بالمصادر المالكية الأصلية التي كانت معروفة في زمانه.

(1) عبد الخالق أحمدون: "التواصل الحضاري بين المغرب والبلدان الأفريقية جنوب الصحراء الكبرى من خلال وثيقة فقهية"، أعمال ندوة: التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، طرابلس: 12-14 ماي 1998، ص 507.

(2) أبو العباس أحمد ناصر السلاوي: المصدر السابق، ص 103-132.